المضمون الأدبي لـ (قصة الطوفان) في ثقافة شعوب العراق القديمة:

جرى بعض نقدة الأدب على تمييز (القصص: Legends) من (الأساطير: Myths)، وهم يعرفون الأولى باستنادها إلى حوادث معينة، ووقائع حقّة، صيغت في قالب روائي، ويضربون الأمثال عليها: الإلياذة والأوديسة عند الرومان، و (قصة الطوفان) في (ملحمة كلكامش) عند شعوب بلاد ما بين النهرين القديمة. أما (الأساطير) فتعرف بأنها ثمرة الخيال الإنساني الصرف اصطنع لتفسير بعض القضايا الوجودية، ومنها (أسطورة الخليقة) عند شعوب العراق القديمة، و(قصة الطوفان) عند الإغريق.

وهؤلاء النقدة يذهبون أيضاً إلى أن السمة المميزة لإنتاج شعوب العراق القديمة الأدبي هو أنه (شعري) و (أسطوري)، وباستثناء القليل منه ليس هو بالفلسفي ولا العقلاني.

ولتوضيح ما يذهبون إليه نقول: إذا لم يأت دجلة في سنة ما، بماء وفير فهذا مصور في إنتاجهم الأدبي: (أن النهر أبى أن يرتفع سواء أكان ذلك بسبب غضبه، أم بسبب غضب الآلهة، وعلى ما عللّوا به حدوث الطوفان عفوياً، أي أن مرد ذلك لا إلى شح في الثلوج أو انحباس في المطر. ولهذه القضية واقعة معينة دالة موضحة ترويها رقيمات القوم: لم ترتفع، ذات مرة، مياه دجلة، في عهد (كودية)، لذلك قصد هذا المعبد

وبات فيه ليلته يستلهم الآلهة لتدله على السبب، فظهر له الإله في الحلم – ومن عادة تلك الشعوب استحصال التوجيه الإلهي عن طريق الاتصال بالآلهة في الأحلام – فظهر له الإله بطريقة لم يستطع إلى تعليلها سبيلا، لذلك لجأ على العادة المتبعة إلى الكهنة، ففسروا له حلمه بأن الإله (ننكرسو) يروم منه أن يبني معبداً جديداً، ففعل!

هذا وأن (قصة الطوفان البابلي) لتظهر تأثير ديانة قدماء العراقيين في إنتاجهم الأدبي، فالآلهة تشارك البشر في الملاحم، وهي شخوص في القصص والأساطير، كما أنها تعكس كيف يغدو الملك بطلاً أسطورياً، وأعني بالملك: كلكامش الذي يؤلف خبر الطوفان جزءاً من (ملحمته). قلت إنه: ملك وأزيد على ذلك فأقول أن أسمه ورد في ثبت ملوك الوركاء، في عهد سلالتها الأولى والتي لا يعرف الباحثون – الآثاريون أكثر من أسماء ملوكها. إن (ملحمة كلكامش) التي تؤلف (قصة الطوفان) جزءاً منها تعد أطول ملحمة شعرية في الأدب البابلي، وقد تكون قصة الطوفان أصلاً موضوعاً مستقلاً ثم أدمجت في ملحمة كلكامش، إذ جاءتنا عنه روايات سومرية أخرى. ونستطرد فنقول: إن (قصة) من – (قصص الطوفان) وجدت عند جل الشعوب والأقوام شائعة في أرجاء آسيا، وجزائر المحيط الهادي، والقارتين الأمريكيتين: الشمالية والجنوبية، ولكنها قليلة في أوروبا وأقل من القليل في أفريقية. وهذه تختلف عن قصة الطوفان البابلي في كون الأخيرة مرتكنة إلى أن (طوفاناً عظيماً) وقع في مطاوى تاريخ بلاد ما بين الرافدين القديم حقاً وانتقل خبره، عن طريق الرواية الشفوية، فأضيف إليه أشياء وحذفت

منه أشياء جيلاً فجيلا. إن (قصة الطوفان التوراتي)، على ما ذكرنا، تشبه (قصة الطوفان البابلي).

ونرجح لذلك أن مصدر القصتين واحد، أعني طوفاناً حدث في القسم الجنوبي من العراق، في بداية الألف الثالث قبل الميلاد، (عهد جمدة نصر)، لقد ورد ذكره كحد فاصل في إثبات الملوك السومريين: فثمة ملوك قبله وثمة ملوك بعده.

ويلحظ أن فحوى ومحتوى قصة الطوفان هو (نزعة الإثم) وما تجره من خطايا عرف بها البشر، ورغبة الحد منها على يد الآلهة التي ترقب ما يرتكبه البشر بعين يقظة ساهرة لتصحح أخطاءه، وبذلك يعود عهد الصلاح بعد انتشار الفساد، وهذا المضمون تجده في كثير من القصص والأساطير الإنسانية. وهنا يؤدي الخيال المنفتح دوره الكبير في نسج القصة، ولا أدل على ذلك من أن عمل أوتو نبشتم العبد الصالح، وبناءه الفلك، وحشره نماذج من المخلوقات فيه، إنما أريد به النجاة من نتيجة غضب الآلهة على البشر وإرسالها (الطوفان). وأن عمله الصالح نفسه هو الذي رفعه إلى مرتبة الآلهة وكتب له الخلود السرمدي.

رأينا أن (قصة الطوفان) و (ملحمة كلكامش) – وكلاهما تتناولان (الطوفان) عرضاً هما الملحمتان الرئيستان في الإنتاج الأدبي لشعوب بلاد ما بين النهرين القديمة، ونضيف إلى ذلك: أنهما لم تظهرا بالشكل الخالد (الكلاسيكي) إلا في (عصر حمورابي) وعنده كتبتا باللغة

الأكدية، وإن لم تعد الإشارة إلى أن جذورهما ممتدة إلى العصر السومري، على التحقيق.

يقول مورتكات ما محصله[1]: (وبينما تشكل ملحمة كلكامش انتاجاً فنياً شعرياً، وبأكثر من افصاحها عن وثيقة دينية – إن أمكن في الشرق الفصل بين الأمرين – تكون (ملحمة الخليقة) أقرب إلى الأدب الكهنوتي الفلسفي الديني. أنها قصة التكوين البشري الرسمية المعتمدة لدى الحكومة، وعلى هذا الأساس تقوّم روحياً في كل عصر. إن (ملحمة الخليقة) وثيقة ذات خطر كبير، باعتداد تأريخ العصر، ذلك أنها تدلنا على تنظيم آلهة العالم الأكثر قدماً وطريقة عبادتها على وفق ما كانت ترتأيه الحكومات القائمة، كما ترينا تكوين العالم وطريقة حكمه وتدلنا على طريقة الأعمار والأقدار، وأخيراً تعلمنا كيف خلقت البشرية وأسست الملكية. أن (ملحمة كلكامش) صنيع شعري يسمو على الزمان وهي أقدم ملحمة بطولية في العالم.

ومن حيث التركيب مثالاً يحتذى في الملاحم، ومن حيث الموضوع تتناول أيضاً المشكلة الأزلية التي تهم الجنس البشري أي: مشكلة الحياة والممات، وبالتالي جدوى الوجود الإنساني، أو عدم جدواه، وبالتالي خلق وفناء الإنسانية على أيدي الآلهة.

---

[1] تأريخ الشرق الأدنى القديم – تأليف أنطون مورتكات تعريب توفيق سليمان. وعلي أبو عسان وقاسم طوير ص ١١٥.

إن المشكلة الرئيسة التي تدور حولها ملحمة كلكامش هي بلوغ مرتبة الحي الذي لا يموت وذلك بعد التعرف على الموت.

وبصدد النقطتين الأخيرتين نقول:

إن (أوتا – نبشتم) في (ملحمة كلكامش) هو الإنسان الوحيد الذي أنقذه (ايا)، بدافع العاطفة على الجنس البشري من (الطوفان)، وزوده بـ(عشبة الحياة) الخالدة.

(ذلك أنه قال لـ(كلكامش):

انبني، ها هنا، بيتا على الدوام

أنبقى هنا على الدوام

انتآخى هنا إلى الأبد)؟.

وكان عطف (اوتا – نبشتم) – نوح البابلي – على (البطل) حين زوده بـ(العشبة العجيبة) التي تخلد الشباب، إلا أن أفعى سرقتها منه في أثناء رجوعه. وهكذا عاد (البطل) إلى (اوروك) خائباً، بعد أن لقي في مسعاه نصباً، ليجد في (صرحه الكبير السرمدي) عزاءاً، وأعني به (سور المدينة) الذي بناه، مؤمناً بأن عمل الإنسان هو أخلد من الإنسان، أخيراً.

وثمة ملحظ عن (مجمع الآلهة) الذي أمر بتدمير الجنس البشري (الطوفان)، على ما مر بنا:

لقد كان هذا (المجمع) مؤلفاً من عدد كبير من الآلهة المتجانسة المتوافقة يمثل بعضها قوى الطبيعة والآخر الكواكب، ومنها ما يخص المقاطعة أو المدينة أو الأسرة. كما أنها كانت تمثل قوى الحياة والمهمات وأسرار الكون أيضاً، وأنها مدبرة أقدار البشر. وكانت مكانة كل (إله) في (مجمع الآلهة) تابعة لوضع دويلته، فخطر (انين) و (نانا) مثلاً كان يرتفع وينخفض تبعاً لارتفاع أهمية (أور) أو (أوروك) وانخفاضها. كانت سلطة هذه (الآلهة) تشمل الأرض والسماء على حد سواء، منذ فجر تأريخ العراق القديم.

وثمة (ملحوظة) أخرى بشأن الملحمتين الخالدتين أيضاً: فمن (كلكامش) نستخلص أن شطراً من رقيماتها، في الأقل، يعود إلى العصر البابلي القديم، على حين مناص من أن يكون بطل (ملحمة الخليقة) من (العصر السومري)، سيد العالم، وخالقه (انليل) إله نيبور، وما كان هذا إلا إله بابل المحلي. ومنذ أصبح الأخير إله إمبراطورية نجده يحتل مكاناً علياً، كموجه للعالم طراً